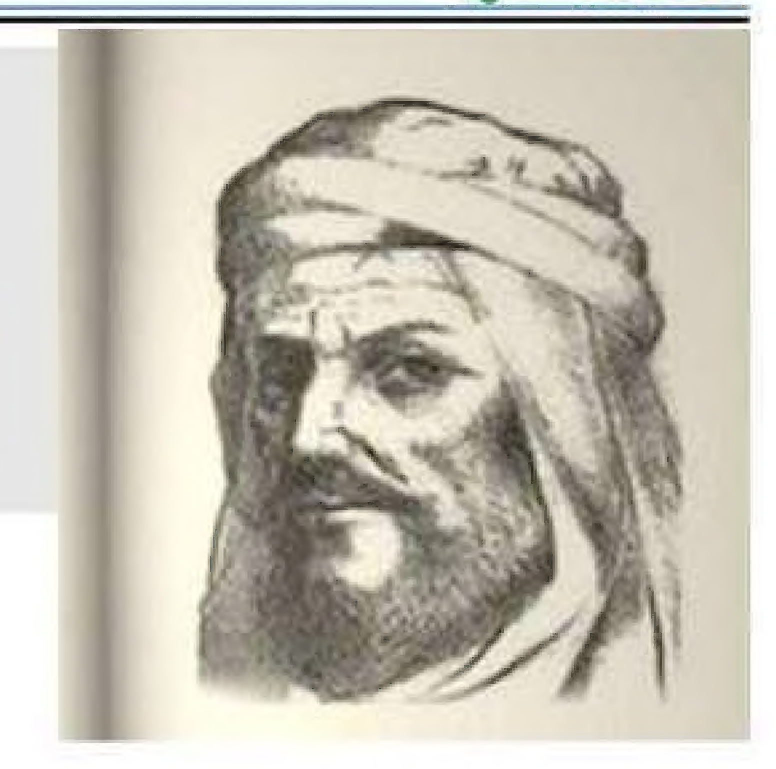


في بَلاط المُتنبي

(الحلقة السابعة)



بقلم الأستاذ: محمد ولد إمام

من أهم القصائد التي أسميها المفتاحية لشخصية المتنبي، هي رثاؤه لجدته، وهي قصيدة باح فيها بالكثير من مكنونات نفسه، وفلسفته في الحياة، وآماله وآلامه، وأهدافه وخيباته، لذلك سنقف عند أبيات منها مهمة:

ألا لا أرى الأحداث مدحاً ولا ذمّا
فما بَطشُها جَهلاً ولا كفُّها حِلما

هنا يُبدي أبو الطيب رأيه في الحياة وأحداثها، فلا هي تحدث لانتقام مثلا ولا هي تكف لكرامة شخص عليها أو حلمها عنه، فهي كقوة عمياء تصيب من تصيب وتخطئ من تخطئ على حد قول زهير الشهير متحدثاً عن الموت:

رأيتُ المَنايا خبطَ عشواءَ مَن تُصِبْ
تُمِتهُ ومَن تُخطئْ يُعمَّرْ فيَهرَمِ..

فكلا الرجلين يرى الحياة والموت قوة عمياء لا تصيب عن سابق إصرار، ولا تخطئ عنه.

عرفتُ اللّيالي قبلَ ما صَنَعتْ بنا
فلمّا دَهَتني لم تَزِدني بها عِلْمَا

وهذا تأكيدٌ لمعرفته بالدهر وخطوبه لطول ما شاهد ما تبتلي به الدنيا أهلها فلما جاء دوره لم يجزع ولم تزده علما لأنه علم صروفها قبل هذا.

طلبْتُ لها حَظّاً ففاتَتْ وفاتَني
وقد رَضيَتْ بي لو رَضيتُ بها قِسْمَا
فأصْبَحتُ أستَسقي الغَمامَ لقبرِها
وقد كنْتُ أستَسقي الوَغى والقنا الصُّمّا
وكنتُ قُبَيلَ الموتِ أستَعظِمُ النّوَى
فقد صارَتِ الصّغَرى التي كانتِ العظمى
هَبيني أخَذْتُ الثّأرَ فيكِ منَ العِدَى
فكيفَ بأخذِ الثّأرِ فيكِ من الحُمّى
وما انسَدّتِ الدّنْيا عليّ لضِيقِهَا
ولكنّ طَرْفاً لا أراكِ بهِ أعمَى

في هذه الأبيات الرائعة، يقول أبو الطيب إنه ذهب مذاهبَ شتى في البلاد بحثاً عن الحظ، ولك أيها القارئ الكريم أن تفسر هذا الحظ بما شئت، فقد يكون قصد بحثه عن الولاية، أو المجد، أو شرف النسب العلوي أو غيره، لكنه رغم البحث والمغامرة فاته هذا الحظ المنشود وفاتته جدته أيضاً، وقد رضيت به قسما وحظا ولم تكن تريد إلا أن يبقى معها لكنه لم يرض ذلك بل إن شعلة البحث عن المجد والرياسة كانت أقوى.

ولوْ لم تكُوني بنْتَ أكْرَمِ والِدٍ
لَكانَ أباكِ الضّخْمَ كونُكِ لي أمّا
لَئِنْ لَذّ يَوْمُ الشّامِتِينَ بيَوْمِهَا
لَقَدْ وَلَدَتْ مني لأنْفِهِمِ رَغْمَا
تَغَرَّبَ لا مُسْتَعْظِماً غَيرَ نَفْسِهِ
ولا قابِلاً إلاّ لخالِقِهِ حُكْمَا
ولا سالِكاً إلاّ فُؤادَ عَجاجَةٍ
ولا واجِداً إلاّ لمَكْرُمَةٍ طَعْمَا
يَقُولونَ لي ما أنتَ في كلّ بَلدةٍ
وما تبتَغي؟ ما أبتَغي جَلّ أن يُسْمى
ولكِنّني مُستَنْصِرٌ بذُبابِهِ
ومُرْتَكِبٌ في كلّ حالٍ به الغَشمَا
وجاعِلُهُ يَوْمَ اللّقاءِ تَحِيّتي
وإلاّ فلَسْتُ السيّدَ البَطَلَ القَرْمَا
إذا فَلّ عَزْمي عن مدًى خَوْفُ بُعْدِهِ
فأبْعَدُ شيءٍ ممكنٌ لم يَجِدْ عزْمَا
وإنّي لمِنْ قَوْمٍ كأنّ نُفُوسَهُمْ
بها أنَفٌ أن تسكنَ اللّحمَ والعَظمَا
كذا أنَا يا دُنْيا إذا شِئْتِ فاذْهَبي
ويا نَفْسِ زيدي في كرائهِها قُدْمَا
فلا عَبَرَتْ بي ساعَةٌ لا تُعِزّني
ولا صَحِبَتْني مُهجَةٌ تقبلُ الظُّلْمَا

في هذه الأبيات يواصل أبو الطيب ثناءه على جدته التي هي بنت أكرم والد، وحتى لو لم تكن كذلك فيكفيها أن حفيدها المتنبي؛ وهو بذلك يقلب الأنساب العربية جميعا رأساً على عقب، فقد صار الفرع مفخراً للأصل؛ وهذا مثل قول الآخر:

قالوا أبو الصقر من شيبان قلت لهم
كلا لعمري، ولكن منه شيبانُ..

ثم يواصل بوحه بهمومه وأحلامه وتطلعاته وما يلاقي من دهره ومعاصريه من كيد وحسد، لكنه مع ذلك يهددهم ويتوعدهم أقوى الوعيد وأقساه وأمرّه، وأنه معتمد على ذباب سيفه فهو تحيته التي يلقاهم بها.

وسنقف بك عزيزي القارئ عند بعض الأبيات من قصائد متفرقة تظهر معاناة الرجل مع ما يرميه به الدهر وأهله من نكبات وما يعتمل في نفسه من أحلام وطموح.

اقرأ معي مثلا قوله من قصيدة:

يُحاذِرُني حَتفي كأنّيَ حَتفُهُ
وتَنكُزُني الأفعَى فيَقتُلُها سُمّي
طِوالُ الرُّدَينيّاتِ يَقصِفُها دَمي
وبِيضُ السُّرَيجيّاتِ يَقطَعُها لحمي
بَرَتْني السُّرَى بَرْيَ المُدَى فرَدَدْنَني
أخَفَّ على المَركوبِ من نَفَسي جِرْمي
كأنّي دَحَوْتُ الأرضَ من خبرَتي بها
كأنّي بَنى الإسكَندرُ السدَّ من عَزْمي

قصة كتاب

عبد الرحمن ولد محمد باب

نوازل ابن الأعمش العلوي

البلد:

تفسير شنقيط حسب ما جاء في الوسيط هو عيون الخيل وهي مدينة من مدن آدرار واقعة فوق جبل في جهة غرب الصحراء الكبرى، كانت شنقيط عيونا تشرب منها الخيل وقد بنيت في الأول على موضع مستو مشتد فانتقلت إليه الرمال، وشنقيط هي وريثة أبير القريب جدا منها فلم تزل عمارة شنقيط تنمو وتضمحل عمارة أبير وكان في شنقيط أحد عشر مسجدا بالمسجد العتيق، وكان الركب يمشي من شنقط إلى مكة كل عام ويتعلق بهم كل من أراد الحج من سائر الآفاق فصار أهل هذا الإقليم يعرفون عند المشارقة بالشناقطة، وقد تحج الدار منهم كلها حسب عبارة الوسيط لشدة اعتنائهم بالحج.

يقول المختار بن حامد عن شنقيط أسسها إيدوعل والأقلال بعد بنائهم لشنقيط الجديدة 660 هجرية.

المؤلف:

هو الطالب محمد بن المختار بن الأعمش ولد عام 1036 هجرية وتوفي عام 1107 هجرية أخذ عنه محمد بن أبي بكر بن الهاشم الغلاوي وغيره.

ويقول محققا فتح الشكور الطبعة الثانية إنه من أشهر الفقهاء المفتين المؤلفين في بلاد شنقيط وإليه ترجع أكثر الأسانيد العلمية من بعده أخذ عن عمر الولي المحجوبي الولاتي والقاضي عبد الله بن محمد بن حبيب وأحمد بن أحمد بن الحاج العلويين وأجازه البرهان الكوراني مراسلة وأجازه الحاج عبد الله الحسني وكان صديقا له ودودا وأخذ عنه بن الهاشم الغلاوي ومحمد بن الحاج عثمان وعثمان بن عمر الولي المحجوبي وغيرهم، ولم يفرده صاحب فتح الشكور بترجمة وهي من الغرائب ومن مصادر ترجمته مقدمة روضة الأزهار لابن رازكة وابن امبوجة ضالة الأديب وابن بابه التكملة، ويقول الخليل النحوي في ترجمته، هو مفتي شنقيط وعلامتها الشهير له نوازل فقهية وشرح على إضاءة الدجنة وعلى الفريدة للسيوطي في النحو.

وعن مواقفه يقول الأستاذ ددود في الحركة إنه عارض الحركات الباطنية في عصره.

ويقول بعض مترجميه إنه لو كان في زمن مالك والليث لكان ثالثهما.

ويقول ولد رازكة في ترجمته لشيخه، وهي ملحقة بكتاب ولد السعد حول شربية، هو العالم العلامة الفقيه النحوي الأستاذ الأصولي العروضي المحدث اللغوي المتكلم الصوفي البالغ من كل فن مداه الأقصى وذو المناقب التي لا تعد ولا تحصى ولد عام توفي سيدي أحمد بابه التنبكتي 1036 هجرية وكان الناس يقولون مات إمام محقق في هذا العام وولد آخر فحفظ القرآن وهو صغير فأقبل على كل علم يرتضع أخلافه ويتعاطى بكؤوس التحقيق والتدقيق سلافه فما لبث أن مهر وبهر وظهر واشتهر فهو مجلي الحلبة الذي لا يجارى ومبرزها الذي لا يبارى تلا على علي الراداني بالقراءات السبع وأخذ الفقه والحديث وألفية ابن مالك وغير ذلك وقرأ تآليف السنوسي مع ما منحه الله تعالى في كل علم من التيسير.

الكتاب
نوازل ابن الأعمش

لم يذكرها العلامة المختار ولد حامد في الأجوبة التي ذكرها في موسوعته واكتفى بترجمة المؤلف دون ذكر نوازله وهي نوازل مشهورة تبرهن حسب ولد السعد على طول باعه في العلم إذ كان بارعا في الفقه والمنطق والكلام والحديث والنحو واللغة والبديع والعروض والحساب وقد عزا فيها كثيرا بما يبرهن على ذلك.